

ما تبقى من فكر مالك بن نبي: محاولة لرسم معالم مشروع "بنيابي" جديد

What Remains of Malek Bin Nabi's Thought: An Attempt to Draw the Milestones for a New "Bennabi" Project

بن سعيد محمد

المركز الجامعي نور البشير – البيض (الجزائر)

m.bensaid@cu-elbayadh.dz

تاريخ النشر: 2021/08/01

تاريخ القبول: 2021/03/29

تاريخ الاستلام: 2021/03/15

ملخص:

إن العودة إلى أفكار المفكر والعالم الاجتماعي الجزائري مالك بن نبي (1905-1973) بهدف عرضها، والعمل على قراءتها وفق منهجية معينة، أو تناولها من زاوية أيديولوجية محددة، لم تعد تفيد. فزمن الرجل مضى وانقضى، لكن العودة إلى البحث في مدونته عن ما تبقى من تلك الأفكار القابلة للحياة، أي القراءة الواعية غير التقليدية لتلك الأفكار التي لا ترتبط بالزمان أو المكان، كفيلة برسم معالم "بنيابية"، تعمل على التجديد والإبداع.

الكلمات المفتاحية: مالك بن نبي، عالم الأفكار، الحضارة، النهضة، الابداع الحضاري.

Abstract: Turning back to the ideas of Malik Ben Nabi (1905-1973), the Algerian intellectual and social scientist, with a view to presenting and reading them in accordance with a particular methodology, or dealing with them from a specific ideological angle, is no longer useful. However, Ben Nabi's time is gone, but a search on his blog for what's left of those viable ideas, that is, the unconventional, conscious reading of those ideas that are not connected to time or space, may draw Bennabian's features that boosting innovation and creativity.

Keywords : Malik Bin Nabi, the word of ideas, civilization, renaissance ,and cultural creativity.

مقدمة :

إن العودة إلى مالك بن نبي- الفكرة (وليس مالك بن نبي - الشخص)، هي مناسبة لاستدعاء واستحضار "فكر"، يجب أن نجعل منه قاعدة لتأصيل وتطوير مشروعه الحضاري، المتمثل في تحقيق مشروع العالمية الإسلامية الجديدة.

ويبقى التساؤل ملحا: ما هي الكيفية الناجعة التي ينبغي أن نتعامل بها مع فكر بن نبي؟ ، كيف نفكر من خلاله؟ كيف نجعل مما تبقى من أفكاره أرضية لانطلاقة حضارية نوعية من شأنها أن تجعل "الإنسان الشاهد" يقتحم أسوار المستقبل، ويدخل فضاء النزعة الإنسانية الخلاقة.

لذلك، فإن الإشكالية المحورية التي تسعى هذه الورقة إلى المساهمة في معالجتها، تركز حول التساؤل عن كيفية "ضمان" الاستمرارية التاريخية لمالك بن نبي، وكيف نساهم في ترهين فكره، التوافق إلى "إنسان مستقبلي" يلج التاريخ الحي.

1- الظاهرة البنابية: مشروع رؤية مستقبلية للإنسان والعالم.

قبل الاحتلال الفرنسي للجزائر، كانت منطقة قسنطينة- مسقط رأس مالك بن نبي - مركزا تقليديا للثقافة العربية الإسلامية، وظلت محافظة على تلك المكانة، رغم التحولات البنيوية التي شهدتها بعد دخول هذا الاستعمار، حيث صارت مركزا اقتصاديا وثقافيا واجتماعيا لهذا الوجود الدخيل. ويكون من نافلة القول، أن هذا الواقع الجديد بدأت هذه المدينة العريقة تعاشيه، هيئ الظروف الموضوعية لميلاد حركة إسلامية، كان رائدها الشيخ الإمام عبد الحميد بن باديس (1889-1941)، استطاعت مجابهة الفكر الغربي الغريب من جهة، وتمكنت من تحرير عقول الجزائريين من برائن فكر مرتبط بتراث يدافع عنه "مثقفون" و "متدينون"، فرضوا على الجزائريين وصاية مزيفة، ومارسوا عليهم رهبانية ابتدعوها، من جهة أخرى.

إن هذا التوصيف لا يعني تجاهل وجود "أعلام" في النضال الفكري والسياسي والثقافي، والجهاد والمقاومات الثورية والانتفاضات في عموم تراب الجزائر- على غرار حركة ابن باديس- ، كل ذلك مكن من التصدي ببسالة إلى مختلف المشاريع الفكرية والثقافية التي جاء بها الاستعمار الغاصب. وبفعل عدم التكافؤ في العدة والعتاد والقوة المادية، استقر الأمر للاحتلال، فعُمل الفقر والجهل والبؤس والحرمان.....، وتحولت "جغرافيا" البلاد لصالح المستعمر، حيث فرض واقعا "حضاريا" جديدا، وزج المستعمرون والمستوطنون بالسكان الأصليين في المناطق الجبلية، وأرغموهم على الهجرة إلى المناطق الداخلية الفقيرة، بينما استولوا هم على الأراضي الخصبة، فازدادوا غنى وثراء، بينما ازداد الجزائريون المستعمرون فقرا وبؤسا وحرمانا.

حلّ القرن العشرون، ليجد هذا الواقع التاريخي المأساوي الذي عاشه - ولا يزال - الشعب الجزائري، يوسّع من بؤرة هذا التأزم الخانق، وينذر بمحاولة هدم و تدمير الشخصية الوطنية، والقضاء عليها من الجذور، وجعل الجزائر امتدادا طبيعيا جغرافيا وثقافيا وحضاريا واجتماعيا للمستدمر الفرنسي. ولم يكن العالم العربي والإسلامي أحسن حالا من هذا الوضع المأساوي الذي تعيشه الجزائر، فقد سقطت اغلب - ان لم نقل كل- بلدانه تحت الاحتلال والاستعمار الغربي وبأشكال مختلفة ومشبوهة كالانتداب والوصاية والحماية....، وتم تصفية الخلافة العثمانية عام 1924 على يد أتاتورك، أدى ذلك محليا إلى انحسار محاولات الإصلاح، واستتب الأمر للغرب الاستعماري الذي "بعد ان فرض سيطرته الكاملة على الوطن العربي وما وراءه من بقاع العالم الإسلامي، زادت محاولاته الجادة لاحتواء العرب والمسلمين حضاريا"¹.

بالعودة إلى الواقع الجزائري يوم ذاك، فليس بخاف إن الاستعمار الفرنسي في الجزائر، لم يكتف بالقسوة واللبشاعة والنهب الكامل لثروات ومقدرات البلاد، بل سعى سعيا مدروسا "للدخول داخل الإنسان الجزائري وتدميره من الداخل، ولم يكتف بتدميره جسديا عن طريق الجوع والعطش والمرض والبرد والتشريد والتنكيل والتعذيب، لم يكتف بكل هذا، وفي اطار مشروعه المقيت "الجزائر جزء من فرنسا" حاول تدمير شخصية الانسان الجزائري والقضاء على مقوماتها الوطنية، الثقافية والفكرية والنفسية والاجتماعية والحضارية، فهو لم يكتف بالاستيطان الجغرافي للجزائر، بل كان يسعى جاهدا للاستيطان داخل الانسان الجزائري، لم يكتف بأن يدخل أرضه، بل راهن على أم يسكن بداخله"².

في خضم هذه الظروف التاريخية المأسوية، وفي مستهل هذا القرن كان مولد مالك بن نبي (1905)، الذي اعتبر نفسه شاهدا على هذا القرن، حيث عبر عن ذلك قائلا "...هكذا فقد استفدت بامتياز لا غنى عنه لشاهد حينما ولدت في تلك الفترة"³.

والواقع ان مسار حياة وفكر بن نبي معروف - ودون الخوض في عرضه بتفاصيله- يمكننا اختصاره في المراحل الزمنية والمكانية الآتية:

- مرحلة المولد والنشأة: الجزائر (1905-1930).

- مرحلة الهجرة الأولى: فرنسا (1930-1956).

¹ محمد عمارة، الصحة الاسلامية والتحدي الحضاري، دار الشروق، القاهرة، ط2، 1997، ص 43.

² بن ابراهيم الطيب، مواقف وأفكار مشتركة بين مالك بن نبي وابن خلدون، دار مدني للنشر والطباعة، الجزائر، (د،ط)، 2002، ص 27-28.

³ مالك بن نبي، مذكرات شاهد للقرن، دار الفكر المعاصر- بيروت، دار الفكر - دمشق، ط2، 1993، ص 15. (ويعتبر هذا الكتاب المصدر الوحيد الذي يعرض لسيرة بن نبي طفلا وطالبا).

- مرحلة الهجرة الثانية: القاهرة (1956-1963).
- مرحلة العودة والاستقرار: الجزائر (1963-1973).
- في كل هذه المراحل أحداث وأطوار وتنقلات، وإبداع لمواقف وأفكار، إنها مراحل تستوعب أكثر من 30 عاما من التأمل والتفكير والتحليل، للمسألة الحضارية ولوضع شروط النهضة للمجتمع العربي والإسلامي، إنها كذلك- من جهة أخرى- أكثر من 20 عاما من الكتابة والتأليف (1946-1967).
- هذا الواقع العام لحال الجزائر، ولحال العالم العربي الإسلامي، وهذه المحطات الزمكانية التي حددناها، هي التي شكلت المعطيات الموضوعية لميلاد ونشأة واستواء ما ندعوه بـ "الظاهرة البنيابية".
- كيف نتصور هذه الظاهرة الفريدة في تاريخ الفكر الحضاري العربي المعاصر؟، أو بتعبير آخر: كيف نفهم ونصنف الإسهام الفكري لمالك بن نبي في حل "مشكلات الحضارة العربية الإسلامية المعاصرة"؟.
- ماهي "البنيابية"، إذن؟.
- إنها كما عبرنا، "مشروع رؤية للإنسان والعالم"، ونستطيع الوقوف على ملامح ومعالم هذه الرؤية المستقبلية من خلال جل مؤلفاته.
- إنها: تلك الدعوة الصريحة لإصلاح أوضاع العالم الإسلامي المتردية، وذلك من خلال جملة من المقومات والعناصر التي يجب لأن تتوفر، لكي يتحقق البناء الحضاري الذي ترافقه الفكرة الدينية، هذه العناصر معروفة في المتن البنيابي بـ "شروط النهضة"، وهي ما يدعوه دارسوه بـ: معادلة الحضارة: (الإنسان- التراب- الوقت). إن هذا الانجاز الحضاري لن يكتب له التحقق إلا بهذه الشروط، و فقط⁴.
- إنها مشروع يحارب بلا هوادة، كل أسباب الفشل وكافة مظاهر الإخفاق المتكرر، أو العراقيل والمعيقات التي يمكن رصدها على مستوى عالم الأشخاص، أو عالم الأشياء، أو عالم الأفكار، أو من خلال العلاقات التي تشد هذه العوالم بعضها إلى بعض⁵.
- إنها مركزية الإنسان في عملية النهوض الحضاري، فالحضارة ليس كمًا أو تراكما من الأشياء والأفكار، وإنما هي بناء يجسد عبقرية المجتمع أو البلد، ويعكس شخصيته القوية (ألمانيا كنموذج)، بناء ينطلق من اعتقاد أصحابه أن الأزمة ليست في الوسائل أو الإسراف فيها، وإنما في الأفكار أو المشكلات الحضارية⁶.

⁴ راجع لمالك بن نبي "الظاهرة القرآنية" (1946)، و "شروط النهضة"، الذي أصدره سنة 1948

⁵ راجع له كتابيه: "مشكلة الأفكار في العالم الإسلامي" الذي كتبه سنة 1971، و "تأملات" الذي ألفه في الفترة (1960-1961)

⁶ راجع له كتابيه: "فكرة كومونولث إسلامي" الصادر عام 1960، و "من أجل التغيير" الذي صدرت طبعته الأولى عام 1995.

- إنها ذلك التشخيص الدائم لمعوقات الحضارة، الداخلية والخارجية، فالأولى تطال مجالات ثلاثة: المجال الفكري، حيث انعدام الرؤيا المتكاملة في التناول المعرفي للمشكلات، أي سيطرة النزعة الذرية، فيتوارى النقد الذاتي ويغيب الوعي المنهجي، وأما في المجال النفسي، فتغيب الفعلية، ويتعاضم الميل إلى التكديس، بحكم الاستعداد الذاتي للاستعمار، وأما المجال الاجتماعي، فيسود تهلهل عالم الأفكار وطغيان عالمي الأشياء والأشخاص⁷.

- إنها الإقلاع الحضاري الذي يراعى التوازن بين العوامل المادية والعوامل الإلهية، بين الأخذ بالأسباب والسنن والتوكل على الله، بين الإيمان والعمل، إقلاع ينطلق من مبدأ ضروري واستراتيجي في كل تشريع اجتماعي واقتصادي، مبدأ يقرر "كل الأفواه تستحق قوتها، وكل السواعد يجب عليها العمل"، إقلاع حضاري ينبغي أن تتحقق فيه شروط النهضة المشار إليها سلفا- المستندة على المبدأ القرآني

- إنها الإقلاع الحضاري الذي يراعى التوازن بين العوامل المادية والعوامل الإلهية، بين الأخذ بالأسباب والسنن والتوكل على الله، بين الإيمان والعمل، إقلاع ينطلق من مبدأ ضروري واستراتيجي في كل تشريع اجتماعي واقتصادي، مبدأ يقرر "كل الأفواه تستحق قوتها، وكل السواعد يجب عليها العمل"، إقلاع حضاري ينبغي أن تتحقق فيه شروط النهضة المشار إليها سلفا- المستندة على المبدأ القرآني⁸.

وهذا ف"الظاهرة البنابية" هي، هذا الإقلاع الاقتصادي - على المستوى الفكري الحضاري لا الفني- الذي يعتبر المسألة الاقتصادية لا تنحصر في الأرقام والمعادلات والكميات، بل هي سلوك تنموي تتداخل فيها دوائر ومجالات عقيدية وروحية وسياسية، ونفسية واجتماعية وأخلاقية وتربوية وفنية، تداخل لا يتعارض مع الفطرة الإنسانية، التي هي المنطلق والغاية⁹. (إنها تلازم الإرادة مع الامكان. وتجربة المجتمع الإسلامي في عهد النبي محمد ﷺ الذي انطلق من الصفر، وكذا تجربة ألمانيا المدمرة بعدد ع 2، وأيضا الظاهرة اليابانية، هي كلها أدلة تاريخية على صحة هذا التلازم، وعلى قيمة "رأس المال الفكري" في منظور البنابية).

- إنها بكلمة أكثر عموما: إعادة بناء المجتمع المسلم المعاصر، انطلاقا من الفكرة الدينية كأساس لأي تغيير اجتماعي، استرشادا بالآية رقم 11 من سورة الرعد: "إن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم". هذا

⁷ محمد العاطف، معوقات النهضة وطرق علاجها في فكر مالك بن نبي، رسالة ماجستير، جامعة الجزائر، السنة الجامعية 2007-2008.

⁸ راجع كتابيه: "بين الرشاد والتهيه" (الطبعة الأولى 1987)، و"مجالس دمشق" (الطبعة الأولى 2005).

⁹ تصفح كتابيه: "فكرة الافروآسيوية" (الطبعة الأولى 1957) و"المسلم في عالم الاقتصاد" (طبعة دار الشروق بمصر 1974)،

البناء الذي يجمع بين هداية الله والطاقت في الأرض، أو كما قال بن نبي ذاته بين "الأفكار المطبوعة والأفكار الموضوعة".

تلكم هي "الظاهرة البنابية" التي شخصت حال العالم الإسلامي، وقدمت رؤية تتصف بالعمق والشمول، بلغة معبرة وروح متميزة. إنها فلسفة عقلانية (دون أن يعني ذلك لأنها ليست إيمانية)، وإصلاحية تستهدف بعث وإحياء الحضارة العربية الإسلامية، انطلاقاً من مقومات صلبة وأسس متينة.

- إن "البنابية" عندما تذكر، فيما يقول الباحث الأكاديمي الجزائري بدران بن لحسن، يُذكر: "المنظور الحضاري في الفكر الإسلامي، ويذكر ابن خلدون الذي أحيا بن نبي فكره، كما تذكر مقولات الحضارة، والثقافة، والإنسان، والدين. وتذكر أيضاً القابلية للاستعمار باعتبارها أداة لفهم وتحليل التبعية، وتذكر معادلة الحضارة (الإنسان + التراب + الوقت) والدين باعتباره وسط تفاعل عناصر الحضارة، وتذكر مراحل الحضارة (مرحلة الروح، ومرحلة العقل، ومرحلة الغريزة)، وتذكر أعمار المجتمع (مجتمع ما قبل الحضارة، ومجتمع الحضارة، ومجتمع ما بعد الحضارة)، وتذكر شبكة العلاقات الاجتماعية، وتذكر كذلك "مشكلة الأفكار"، ويحضر القرآن بقوة، باعتباره رسالة لتحرر وتحضر الإنسان، ويذكر النبي ﷺ باعتباره النموذج العملي لتحقيق قيم القرآن في التاريخ".¹⁰

- ولكن "البنابية" بهذه الأوصاف، تفرض علينا- على الصعيدين المعرفي والمنهجي- تحديد ماهيتها، فهل يمكن اعتبار مالك بن نبي مصححاً اجتماعياً أو عالم اجتماع أو عالم نفس، أو فيلسوف أو فيلسوف تاريخ؟. يجيب الأستاذ الدكتور عبد الرزاق قسوم الرئيس الحالي لجمعية العلماء المسلمين: "لا ينبغي وضع مالك بن نبي في مجال السوسيولوجيا الاجتماعية، والاقتصادية والسياسية والثقافية فحسب، ولكن في مجال فلسفة الحضارة والتاريخ في شموليتها"¹¹. وهذا الحكم يندرج ضمن مواقف بعض المفكرين وتلاميذ بن نبي، من أمثال الشيخ مبارك الميلي، وعبد العزيز الخالدي، وعمر مسقاوي، وعبد الصبور شاهين...

قبل الحكم على هذه "الظاهرة"، نقول أن مالك بن نبي كان يستخدم المنهج العلمي في أبحاثه، كي يفهم الانتظام بين الظواهر التي يتناولها. وكان يستخدم مفاهيم التحليل النفسي والتاريخي ويستفيد من الفكر الغربي وما حققه من انجازات ابستمولوجية وأيديولوجية، ولاسيما في حقل الفكر الحضاري، مما جعله

¹⁰ بدران بن لحسن : يرجى زيارة موقع : <https://islamonline.net> ، حوار معه في 2016/11/03 بمناسبة مرور 43

عاماً على رحيل مالك بن نبي.

¹¹ عبد الرزاق قسوم، اشكالية الحضارة في فكر مالك بن نبي، مجلة الموافقات، الصادرة عن المعهد الوطني العالي لأصول الدين، الجزائر العاصمة، العدد الثالث، جوان 1994، ص 291.

صاحب منظور ومنظومة فكرية متميزة، لا يمكن نسبتها إلى أحد آخر إلا إليه.(دون تجاهل استفادته من تراث المسلمين في بناء نسقه الفكري ومنظوره الحضاري).

لكن محاولة جريئة، تسير في الاتجاه المعاكس، جاء بها الباحث الأكاديمي بوعرفة القادر والأستاذ بجامعة وهران حاليا: فبتأثير واضح من التحديد الذي وضعه المفكر المغربي طه عبد الرحمن، للفلسفة والفلاسفة، نراه يقول: "...إنه (يقصد مالك بن نبي) متفلسف وليس فيلسوفاً، لأنه لم يستطع أن يبدع نسقا فلسفيا خاصا ومستقلا من عنديته، ولكن هذا لا يعني عدم أهميته وفعاليته وقدرته على التشخيص والتحليل والضبط والتجاوز،.... فتحقق في فكره صفات الفيلسوف الفقيه، العالم، المحلل والمؤرخ والسياسي المنظر¹². ولا يتوانى الأستاذ بوعرفة، في إبعاد صفة "الفيلسوف" على مالك بن نبي فيقول، " إنه يجمع بين حس الفيلسوف المتأمل ومنطق الرياضي المجرد، وقدرة المحلل النفسي على سبر أغوار النفس واستقراء أمراضها وعبقورية رجل الدين في فهم أبعاد النص، من خلال فتحه لباب جديد في الفكر الإسلامي تمثل في فقه الحضارة¹³. ويضيف الأستاذ بوعرفة أن ابن نبي لم يكن مبدعا على مستوى المنهج أيضا، فهو اعتمد على مناهج كثيرة مشهورة، دون أن " يبدع منهاجا خاصا به، بل جل ما فعله محاولة التركيب بين قواعد بعض المناهج الأكثر شهرة ضمن منهج واحد¹⁴.

والواقع أن تفرد وتميز الاسهام البنياي في الحقل الفلسفي، لا يمكن غض الطرف عنه، فالرجل فيلسوف في الفكر الحضاري، مثله مثل ابن خلدون أو توينبي أو اشبنغلر أو غارودي، أبدع فلسفة عقلانية تتجه إلى دراسة سنن التخلف والتحضر، فرسمت طريقا للأمة الاسلامية لاستعادة دورها ورسالتها في التحضر والشهادة والريادة، مثلما فعل سلفه ابن خلدون تماما، حتى لأن كثيرا من الدارسين يصفونه بـ"ابن خلدون الثاني". وهل نستطيع الوقوف على "فيلسوف في الفكر الحضاري" بعد ابن خلدون، حتى عصر ابن نبي، إلا بن نبي نفسه؟!.

ولكن ما طبيعة هذه العدة المعرفية التي ميزت المدونة البنابية؟

2- فكر مالك بن نبي: أصالة جهاز مفاهيمي، وحيوية مضمون معرفي متعدد الأبعاد.

¹² عبد القادر بوعرفة، الحضارة ومكر التاريخ، منشورات مخبر الأبعاد القيمية للتحويلات الفكرية والسياسية بالجزائر، دار رياض العلوم، الجزائر، ط1، 2006، ص 29-30.

¹³ عبد القادر بوعرفة، المرجع نفسه، ص 30.

¹⁴ عبد القادر بوعرفة، ضمن كتاب جماعي " تأملات في فكر مالك بن نبي"، الناشر: مخبر الأبعاد القيمية للتحويلات الفكرية والسياسية بالجزائر، دارالقدس العربي للنشر والتوزيع، وهران- الجزائر، ط1، 2014، ص 60.

هيمنت المسألة الحضارية، أو لنقل مسألة تخلف العالم العربي الإسلامي، على وعي بن نبي منذ فترة شبابه، وكتابات الأولى تعكس ذلك النضج المبكر، حيث عمل على تشخيص مشكلات أمته، مستفيدا من ثقافته المزدوجة التي استطاع بها إحكام قبضته على عقبات ومعوقات النهوض الحضاري للعالم الإسلامي من جديد. لذلك انتدب نفسه لتفكيك هذه المشكلات وطرح البدائل والحلول، بإبداع عدة مفاهيمية ومنهجية شكلت حلقات لمنظومته الفكرية والمعرفية، تمكن بواسطتها من تقديم قراءة بارعة لمشكلات حضارة أمته. إن في كل كتاباته ربط للتخلف الحضاري للعالم الإسلامي بـ "إنسان ما بعد عصر الموحدين"، هذا الإنسان المسئول المباشر على "اللافعالية" التي ميزت المجتمع الإسلامي، والتي يرتبط زوالها حتما بزوال "القابلية للاستعمار" وحدث تصفية حقيقية في "عالم الأفكار"، بحيث تحارب بلا هوادة الأفكار الميتة والمميتة، والإبقاء والاعتماد على الأفكار الموضوعية المستندة إلى الأفكار المطبوعة.

لنقترب من هذا الجهاز المفاهيمي الذي فكك به مالك بن نبي مشكلات الحضارة في المجتمع الإسلامي المعاصر:

1- مفهوم "القابلية للاستعمار".

حمولة هذا المصطلح أو المفهوم الوارد في كتابه "شروط النهضة" (1948)، هي عبارة عن رفض للمعنى اللغوي أو الظاهري الذي ينساق وراءه الجميع، لاسيما أولئك المنددين بالاستعمار والرافضين له، أو أولئك الذين يرون فيه أمرا مفروضا أو قدرا محتوما. كما أن هذه الحمولة تنأى بالمفهوم أن يقصد به شعور بالدونية تجاه الآخر المتفوق. إن قصد بن نبي من طرح هذا المصطلح هو تنبيه الأذهان وتوجيه الأنظار إلى هناك "جملة أوضاع وشروط فكرية ونفسية واجتماعية وسياسية سلبية، تضع المجتمع في حالة من الضعف و القصور والعجز إزاء التحديات المحيطة به. فيجد نفسه في حالة من وهن حضاري يفقده القدرة على رد التحديات ويخضع لها مكرها" (شروط النهضة).

إن القابلية للاستعمار أداة داخلية، تشير إلى تلك المسؤولية الملقاة على الذات في مرحلتها الحضارية الراهنة، أي مسؤوليتها عن المآسي ومختلف الأوضاع المزرية التي تعانيها وتعايشها، بل ومسؤولية تمتد إلى مصير مستقبل هذه الذات. ومنه فإن القابلية للاستعمار، هي ذلك النقد للذات والإقرار بمسؤوليتها في الاستجابة للعامل الخارجي المتمثل في الاستعمار، وكأننا بصاحب هذا المفهوم، يريد أن يحث على النهوض وهجر التقاعس والكسل العقلي والجسدي، بغية بناء حضارة جديدة، لا يستطيع الآخر غير المسلم (الاستعمار) اختراقها من جديد.

نعود ونقول، أن التركيز على هذه العيوب الذاتية، لا يعني تبرئة الاستعمار من مسؤوليته أو التقليل من خطورته. ويبدو أن هذه المتلازمة "القابلية للاستعمار" - "الاستعمار"، تجعلنا منطقيا أمام استخلاص مفاده أن الاستعمار ظاهرة عرضية لخلل داخلي ذاتي هو تلك القابلية للاستعمار. على أنه لا ينبغي القول بحتمية مفهوم ظهور القابلية للاستعمار عند كل "حالة استعمارية"، فألمانيا واليابان - كما ألمعنا - تعرضتا

للاحتلال دون أن يؤدي إلى ظهور قابلية للاستعمار فيهما، وفي المقابل، هناك بلدانا لم تستعمر ولكنها مع ذلك ذات قابلية كحال اليمن مثلا كما يقول بن نبي، فهذه الدولة التي "...لم تفقد استقلالها لحظة، لم تفقد من ذلك الاستقلال أدنى فائدة، لأنها قابلة للاستعمار، أعني عاجزة عن القيام بأي جهد اجتماعي"(وجهة العالم الإسلامي، ص92). إن هذا المفهوم في كثير من الجوانب، يلخص مشكلة الاستعمار، إنه تسليط للضوء على العيوب المحلية في البنيات والأنساق في المجتمعات المستعمرة، فالتخلف ليس من صناعة الاستعمار، وان لم ينكر مالك بن نبي دور هذا الاستعمار في تلك الصناعة.

إن جاذبية هذا المفهوم إذن، تنأت من كونه مفتوح على أكثر من فهم أو تأويل، فعلاوة على الفهم الظاهري اللغوي الذي يؤدي إلى اعتباره جملة صفات بنيوية يستغلها المستعمر في الاستيلاء على من يريد استعمارها، وهذا الفهم لا يغيب عن بن نبي نفسه، وقد يكون وظفه، لكن دون إن يعني ذلك إن الرجل كان يريد من وضع المصطلح معنى أو معاني تجعل منه دائما مقدمة مسببة للاستعمار. إن الصفة التي تجعل من هذا المفهوم بمثابة مبضع يشرح به بن نبي جسد المجتمع المتخلف، تجعل منه أن يكون "نتيجة" وليس "مقدمة" حين الحديث عن أسباب التعرض للاستعمار، والواقع الذي عاشته الجزائر بعد نيلها للاستقلال السياسي عام 1962- وربما لا يزال مستمرا حتى الآن - حيث التعلق بلغة المستعمر(قضية التعريب)، والإصرار على الدوران في فلك فرنسا، هو نموذج لتجلي هذا المفهوم.

في "شروط النهضة"، يعتبر بن نبي مفهوم القابلية للاستعمار، عاملا داخليا، والاستعمار عاملا خارجيا، انطلاقا من توصيف حالة معينة هي حالة الجزائر، حالة تجسد أيضا مرحلة الانقباض الحضاري للعالم الإسلامي، ولا سبيل للتحرر من هذه "الريقة" وتحصيل النهوض إلا بالقيام بالواجبات المطلوب من أبناء المجتمع القيام بها ولذلك فهم القابلية للاستعمار متأتية من عدم القيام بالواجب.

إن قضية "القيام بالواجب" هي بمثابة خيط رفيع يشد أفكار بن نبي بعضها إلى بعض في كل كتاباته وحواراته، فإنسان ما بعد الموحدين، يريد "استلام" حقوقه دون القيام بالواجبات. فكيف السبيل إلى النهضة، ومن ثم إزالة هذه القابلية؟؟. كيف يمكن الانتقال إلى مرحلة الفاعلية؟.

2- مفهوم "الفاعلية":

يترصع المتن البنيابي بهذا المفهوم المركزي، وهو شديد الارتباط بالمفهوم السابق، فالقضاء على مختلف التراكمات النفسية والثقافية والاجتماعية القاتلة، هو شرط أساسي و ضروري في الانطلاقة الحضارية المنشودة، لقد جعل بن نبي من هذا المفهوم أداة في قراءة مشكلات الحضارة، وهو ما مكّنه من تقديم مشروعه الحضاري الفكري الكفيل بإخراج المجتمع الاسلامي من "طنجة" إلى "جاكارنا"، من حالة "اللافاعلية". إن الفاعلية تتحقق عندما ينظر الإنسان لنفسه على صانع للتاريخ ومحرك له، وهو ما حصل

مع الإنسان الغربي، الذي تبين لمالك بن نبي من خلال ملاحظاته الاجتماعية أن "الفعالية هي إحدى خصائص العقل الغربي".¹⁵

على أن امتلاك هذه الفعالية لا علاقة له بالفطرة، بل هي حاصل تفاعل تاريخي لجملة تفاعل عوامل ثقافية معينة، جعلت الإنسان يحرك التاريخ من خلال تحقيقه لمنجزات مادية كبرى، يعتبرها المقياس الحقيقي للفعالية.

وجوهر "الفعالية" بالنسبة للآخر (الغرب) على المستويين الفردي أو الاجتماعي، إنها سلوك وتربية وسيتوبلازما ثقافية واجتماعية، لتأمل هذا الوصف لذلك في هذه الفقرة، حيث يقول بن نبي: "من الملاحظ أن طالب الطب المسلم الذي يذهب لتلقي علومه في إحدى العواصم الأوروبية، يحصل على الدبلوم نفسه الذي يحصل عليه زميله الانجليزي مثلاً، بل إنه كثيراً ما يتفوق عليه إذا ما كان أكثر استعداداً وذكاء. لكنه لا يحصل غالباً على فعاليته، أعني طريقة سلوكه وتصرفه أمام مشكلات الحياة الاجتماعية، وليس لدينا سوى وجه واحد لتفسير هذا الاختلال، هو أن الفاعلية الاجتماعية لا علاقة لها بمنهج الكلية، وإنما تعتمد بصفة عامة على أسلوب الحياة في مجتمع معين، وعلى السلوك الذي ينتهجه الفرد كيفما ينسجم مع هذا الأسلوب".¹⁶ هذه الفعالية في المجتمع الغربيين يقابلها "الفعالية" في المجتمع الإسلامي، حيث التباعد بين العلم والعمل، والعقيدة والسلوك، بفعل عوامل ذاتية وأخرى موضوعية، كرفض النقد الذاتي، ذلك أن: "النقد لم يدخل في عاداتنا، ولم يستقر في جونا العقلي، وان الكلمة ذاتها، لم تبرح أجنبية عن قاموسنا، أو أنها تعني شيئاً آخر، كأن كلمة "نقد" وكلمة "تشويه" مترادفان في لغتنا".¹⁷ أو غياب الوعي المنهجي، حيث أن "أعظم زيغنا وتنكبنا عن طريق التاريخ، أننا نهمل النقطة التي منها نبدأ تاريخنا، ولعل أكبر أخطاء القادة، إنهم يسقطون من حسابهم هذه الملاحظة الاجتماعية، ومن هنا تبدأ الكارثة، ويخرج قطارنا عن طريقه حيث يسير خبط عشواء".¹⁸ أو الميل إلى التكديس، حيث تهافت

¹⁵ مالك بن نبي، فكرة الافريقية الاسيوية، تر:عبد الصبور شاهين، دار الفكر، دمشق، الجزائر، ط3، 1992، ص 19.

¹⁶ مالك بن نبي، مشكلة الثقافة، تر:عبد الصبور شاهين، دار الفكر المعاصر، بيروت، دار الفكر، دمشق، (د.ط)، 2000، ص 73.

¹⁷ مالك بن نبي، في مهب المعركة، دار الفكر، دمشق، ط4، 2002، ص106،

¹⁸ مالك بن نبي، شروط النهضة، تر:عمر كامل مسقاوي و عبد الصبور شاهين، دار الفكر - الجزائر، دار الفكر - دمشق، ط4، 1987، ص52.

المجتمع الاسلامي على تجميع وتكديس منتجات الحضارة الغربية المادية والفكرية، التي لا تؤدي إلى الحضارة. وإنما تنتهي إلى "الحضارة الشيئية"¹⁹.

ويكون غياب الفعالية سببا في تفكك وتمزق شبكة العلاقات الاجتماعية، إذ يغدو المجتمع مريضا، ويكون متوجها نحو نهايته، فيغيب التواصل وتنزل النخبة السياسية والمثقفة، وتتلاشى العلاقة بين الأفراد والمؤسسات، وهو ما يدعوه بن نبي بـ "نقص التنوع"، حيث وجود "الباشا والسوقي والمثقف والأمي، دون أن يكون هناك بين الطرفين اتصال يرسم صورة مستمرة للكيان الاجتماعي، وهذا عكس ما يحدث في أوروبا"²⁰. وإذا ما استمرت هذه الشبكة في التحلل والتفكك، فسيكون ذلك "...إيدان بهلاك المجتمع، وحينئذ لا يبقى منه غير ذكرى مدفونة في كتب التاريخ"²¹. والاستعمار كعامل خارجي أساسي لا يجعل هذه الأمور، إنه يعي إن شبكة العلاقات الاجتماعية، تنظم الطاقة الحيوية للمجتمع و تحفظ شخصيته، وتؤمن له البقاء، ومن البديهي انه يسعى إلى تدميرها من خلال تطبيق قاعدة "فرق تسد". ولا خلاص من هذا الواقع المأزوم إلا بالاعتماد على منطق العمل والحركة. هذا المنطق الذي يقوم على براغماتية ظاهرة، والمتمثلة في السعي إلى استخراج أقصى ما يمكن من الفائدة بالاعتماد على وسائل محددة، بالإضافة إلى فكرة "التوجيه"، والذي يطال ثلاثة مجالات إستراتيجية، الثقافة- العمل- راس المال²². في ظل قطبين أكسيولوجيين هما: الأخلاق والجمال²³.

لكن من أين تستمد هذه الشبكة تماسكها؟ ما مصدر قوتها وضعفها؟.

3- مصطلح "عالم الأفكار":

مافتي مالك بن نبي في كل أعماله، يرفع على قيمة الأفكار، ذلك أن مشكلة العالم الإسلامي، هي مشكلة "أفكار":

إن المطلع على فكر بن نبي يقف بكل يسر، على ذلك التصنيف الثلاثي الشهير: عالم الأفكار ، وعالم الأشياء، وعالم الأشخاص. وعالم الأفكار هذا، هو عبارة مختلف التصورات والمبادئ والنماذج والمعتقدات والمسلمات، ومختلف أنماط التفكير والأحاسيس والمشاعر لمجتمع ما، في لحظة تاريخية معينة، وتبين إن

¹⁹ مالك بن نبي، شروط النهضة، مصدر سبق ذكره، ص48.

²⁰ مالك بن نبي، وجهة العالم الإسلامي، تر: عبد الصبور شاهين، دار الفكر، دمشق، ط2، 2002، ص152.

²¹ مالك بن نبي، ميلاد مجتمع، تر: عبد الصبور شاهين، دار الفكر، دمشق، ط3، 1996، ص42.

²² مالك بن نبي، شروط النهضة، ص87.

²³ مالك بن نبي، شروط النهضة، ص106.

هذا العالم مرتبط بالمجردات والقيم التي لا تتأثر بالأشياء والأشخاص، والإنسان الذي يريد إن يكون في مستوى حضاري رفيع و راق، عليه بالانتساب إلى هذا العالم²⁴.

والعالم الإسلامي منذ انحطاطه، يواجه مشكلة أفكار وليس مشكلة وسائل²⁵

إن عالم الأفكار هو الرأسمال المفاهيمي والإيديولوجي الذي ينتجه المجتمع، وهو يبغى النهوض ثقافيا وحضاريا. فلا مناص لمجتمع يبني أو يعيد البناء من إنتاج الأفكار، أفكار تنفذ بوسائل من عالم الأشياء، من أجل غاية يحددها عالم الأشخاص، في ظل قوة وتمسك لشبكة العلاقات الاجتماعية. يقول بن نبي: "كانت ألمانيا على وجه الدقة- وبطريقة تكاد تكون رياضية- لا تملك سنة 1945 أي مجموعة من "الأشياء" ولكن مجموعة من "الأفكار" فحسب، وهي قد كونت من جديد وابتداء من هذا "الرأسمال المفاهيمي" كل حياتها الاجتماعية، واحتلت مجددا مكانتها السياسية في العالم. إن تجربتها بالنسبة إلينا لا تقدر بثمن فهي تتيح لنا أن نستخلص بطريقة علمية، أن قيمة مجتمع معين في فترة ما من تاريخه لا يعبر عنها بمجموعة الأشياء في هذا المجتمع ولكن بمجموعة أفكاره²⁶.

وتلعب الفكرة الدينية دورا مفصليا وحاسما في هذا البناء. هذه الفكرة التي هي بمثابة قانون يحكم فكر الإنسان، ويوجهه نحو آفاق أوسع، إنها مصدر توجيه الفعلية والطاقة الحيوية للإنسان، وهو منهمك في عملية البناء الحضاري. بيد أن تحليل شبكة العلاقات الاجتماعية يجعل تأثير الفكرة الدينية سلبيا.

ومصطلح "الأفكار"، عند مالك بن نبي، قد يوظف ويشحن بمعان ومضامين مختلفة. فهو تارة يعني "الحقائق"، وطورا قد يستعمل بمعنى "الخبرة الحضارية الجماعية" لمجتمع ما، كما هو الحال عند حديث بن نبي عن ألمانيا أو اليابان، فهاتين الأمتين لم تكونا في حالة عوز إلى الأفكار، وإنما احتاجتا إلى الأشياء²⁷. يقسم مالك بن نبي الأفكار التي تعيق حركية المجتمع إلى: أفكار قاتلة و أفكار ميتة، فالأفكار القاتلة هي الأفكار التي تقتل في الفرد حركيته ودافعيته للبناء والتجديد، أفكار تبعث على الخمول والكسل وقهر الإرادة، وتستنهض بواعث الإجرام والأحقاد والنزاع بين الأفراد فتؤدي به إلى الاقتتال والتفكك. أما الأفكار الميتة فهي ما يجول بالخطر من أفكار فاقدة للحياة، عديمة الفعلية كالخرافات والشعوذة والقبلية للاستعمار، وفي هذا الصدد يقول مالك بن نبي: "إن كل مجتمع يصنع بنفسه الأفكار التي ستقتله، لكنها

²⁴ مالك بن نبي، مشكلة الأفكار في العالم الإسلامي، تر: بسام بركة وأحمد شعبو، دار الفكر للطباعة والنشر، دمشق، ط1، 2000، ص53.

²⁵ مالك بن نبي، المصدر نفسه، ص12.

²⁶ مالك بن نبي، فكرة كومونولث إسلامي، دار الفكر، دمشق، 2000، ص53.

²⁷ انظر : محمد شاويش، مالك بن نبي والوضع الراهن، دار الفكر، دمشق، سوريا، ط1، 2007، ص ص85-86.

تبقى بعد ذلك في تراثه الاجتماعي "أفكارا ميتة" تمثل خطرا أشد عليه من خطر "الأفكار القاتلة"، إذ الأولى تظل منسجمة مع عاداته وتفعل مفعولها في كيانه من الداخل، إنها تُكوّن ما لم تُجرِ عليها عملية تصفية، الجرائم الفتاكة التي تفتك بالكيان الإسلامي من الداخل، وهي تستطيع ذلك لأنها تخدع قوة الدفاع الذاتي فيه.²⁸

يذهب بن نبي بعيدا عندما طرح فكرة انتقام الأفكار المخدولة من أصحابها، فيُبين أن الأفكار الفعالة إذا لم تحظَ بالاحتراف والتطبيق اللازم من معتنقيها فإنها تنتقم منهم وتؤدي عكس مفعولها الإيجابي. إن عالم الأفكار هو بمثابة اسطوانة، يحملها الفرد عند ولادته، وهي تختلف باختلاف المجتمعات بسبب النغمات، والأجيال والإفراد تتناغم مع سلمها الأساسي، أنغام تلك الاسطوانة ونماذجها المثالية هي ما يطلق عليه "الأفكار المطبوعة"، وتوافقاتها الخاصة بالأجيال والأفراد هي ما يدعوه بـ "الأفكار الموضوعية"، وبين الأفكار المطبوعة والأفكار الموضوعية علاقة تأثير وتأثر، والانحراف عن سياق الأولى سيؤدي إلى الخلل بالثانية، يقول بن نبي: "وعندما تنمحي النماذج المثالية، عندئذ لا تسمع أبدا لهجة الروح في تناغم اللحن، فالأفكار الموضوعية حينما تفقد جذورها في الغلاف الثقافي الأساسي، تصمت هي بدورها، إذ لم تعد لديها ما يعبر عنها، ثم إنها لم تعد تستطيع أن تعبر عن شيء"²⁹ والعالم الإسلامي يعيش هذا الصمت.

3- كيف نقرأ مالك بن نبي؟: مساهمة في رسم معالم لمدرسة بنيابية جديدة.

وإذن، فإن الأزمة التي يعيشها اليوم، ليست أزمة أشخاص، أو أزمة أشياء وإنما أزمة في عالم أفكاره. وانطلاقا من تنبيهات مفكرنا، يجب الحذر من الأفكار ذاتها، فقد تكون معول بناء، كما قد تكون سببا في النكوص والانغلاق والجمود، يقول الأستاذ المرحوم عبد اللطيف عبادة- وهو من تلاميذ بن نبي:- "إن الأفكار تؤثر في المجتمع إما كعوامل نهوض، وإما كعوامل تعوق التحرك والنمو الاجتماعي".³⁰

لكن السؤال الذي يظل يطرح نفسه، لماذا تعرض- وربما لا يزال - فكر صاحبنا إلى المحاصرة والتهميش؟ أعتقد أن هذا التهميش والتهميش ليس جديدا أو غريبا، فمواقف الرجل من الاستعمار ومن الحركة الثقافية والسياسية والإصلاحية والإيديولوجية في فترة الاستعمار وحتى ما بعده، بل وإلى آخر رفق من حياته، جلبت له الكثير من الآراء المعارضة، ومن الخصوم، إن في داخل الجزائر أو خارجها. ففي فترة الاستعمار، يصف لنا الأستاذ المرحوم، أبو القاسم سعد الله - شيخ المؤرخين-

²⁸ مالك بن نبي، في مهب المعركة، مصدر سابق، ص 104.

²⁹ مالك بن نبي، في مهب المعركة، ص 136.

³⁰ عبد اللطيف عبادة، مناهج الحركات الإسلامية المعاصرة في التغيير: نقد وتقييم انطلاقا من فكر مالك بن نبي، مجلة الموافقات، الصادرة عن المعهد الوطني العالي لأصول الدين، الجزائر العاصمة، العدد الثالث، جوان 1994، ص 331.

الموقف من أفكار بن نبي، قائلا: "يمثل مالك مدرسة فكرية مستقلة بين المدارس الفكرية التي عرفتها الجزائر منذ الحرب العالمية الأولى، فلا هو من تيار المدرسة الاستعمارية التي نشأ فيه أمثاله واخذوا علمها ولغتها، أي أولئك النخبة الإدماجية. أو النخبة الإسلامية التي رضيت بالوظيف بعد التخرج واكتفت بما تطعمها به الإدارة الفرنسية، ولا هو من تيار المدرسة السياسية التي أنشأها الأمير خالد، ونجم الشمال الإفريقي وحزب الشعب، إذ كان بن نبي كثير الانتقاد لهذه المدرسة (...). ورغم كونه يحس أنه من تلاميذ مدرسة ابن باديس، كان بعيدا عنهم لضيق مجالهم وتخليهم في نظره عن دورهم، ولسذاجتهم، فكان كثير النقد لهم. فهو مستقل الفكر ويمثل مدرسة على حدة".³¹

والواقع أن مالك بن نبي راح ضحية الصراع الأيديولوجي، حيث تعرض للكثير من النقد والتجريح من طرف بعض النخب السياسية والفكرية. فاليساريون ينظرون إليه أنه إسلامي فتعرض لهجماتهم واعتبره البعض إسلاميا منحرفا عن "الطريق الصحيح"، فاتهم بالمروق والالحاد. فالرجل لم يقرأ قراءة صحيحة من طرف بني جلدته (المفكرون والمثقفون الجزائريون)، كما قرأه الاندونيسيون أو الماليزيون أو غيرهم. ثم أن الأنظمة السياسية الحاكمة في البلاد الإسلامية، لا تستسيغ ولا تتفق مع ما يقول، فاعتبرت فكره مناهضا لها. لأنه طلب منهم أن ينتهوا إلى سياسيتهم الإصلاحية والتغييرية، والتي يجب أن يكون منطلقها الواقع الجغرافي، أي من الأرض التي يعيشون عليها. وهو مطلب عجزوا عن تحقيقه - حتى الآن - لأنهم يعانون الوهن، ويهرولون وراء سلطة الوثن.

إن مالك بن نبي - وبحكم المهمة التي انتدب نفسه للقيام به، مهمة انجاز مشروع للنهوض، يضع الاستراتيجيات ويحارب المعوقات والموانع - قدى الأمانة بكل إخلاص، يقول الأستاذ محمد الهادي الحسني - وهو من تلامذة ومعاصري بن نبي: "لقد وضع للمسلمين "شروط النهضة"، ووضح لهم "الوجهة"، ونههم إلى "مشكلة الثقافة"، وفتح أعينهم على "الصراع الفكري"، واقترح عليهم "كومنولث إسلامي"، وحذرهم من "إنتاج المستشرقين وأثره على الفكر الإسلامي"، وبين لهم "مشكلات الأفكار" ومكانة "المسلم في عالم الاقتصاد"، وحدد "دور المسلم ورسالته"، وكان قد استفتح بالذي هو خير "الظاهرة القرآنية"، وهي كنز المسلمين الذي لا ينفد، ودواؤهم الشافي لما في الصدور، ومغير ما بأنفسهم، ومعيدهم سيرتهم الأولى".³²

الرجل شخّص الأدواء ووصف الأدوية، فكل أعماله شاهدة على ذلك. لكنني أظل التساؤل دائما عن أسباب غياب التفكير في التأسيس لمدرسة في العلوم الاجتماعية، يكون منطلقها فكر مالك بن نبي.

³¹ أبو القاسم سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي، ج 7، دار الغرب الإسلامي، بيروت - لبنان، ط 1، 1998، ص 211.

³² محمد الهادي الحسني، مالك بن نبي: لمحات من حياته، وقبسات من فكره، مجلة الموافقات، الصادرة عن المعهد الوطني العالي لأصول الدين، الجزائر العاصمة، العدد الثالث، جوان 1994، ص 284.

وأضعاف هذا التساؤل مع الأستاذ مولود عويمر، حين يقول "لم أجد من خلال دراستي لفكر بن نبي، من ينافسه في معالجة مشكلات الانسان من حيث شموليتها الثقافية والدينية والاجتماعية والسياسية والاقتصادية، إلا ابن خلدون وكارل ماركس. فإذا استطاع المتأثرون بابن خلدون أن يؤسسوا الخلدونية. وتمكن المعجبون بماركس من تأسيس الماركسية. فلماذا عجز لحد الآن تلامذة بن نبي والمتأثرون بفكره على كثرتهم، أن ينشئوا "البنابية"، رغم عبقرية هذا المفكر واكتمال مشروعه الفكري³³.

حسب رواية لابنته "رحمة"، فإن والدها قال سيعود بعد 30 عاما، ويبدو أن الشعور بأهمية العودة إلى أفكاره وغربلتها واستثمار ما هو قابل للحياة في عصرنا، هو المظهر الرئيس لهذه النبوة. إن "الصالح" من العناصر المتبقية من فكر مالك بن نبي، والتي تقبل أن نوظفها في اهتماماتنا المعاصرة هو: الروح البنابية

فما المطلوب منا تجاه هذه الروح؟.

إن الأمر يستدعي إحياء هذه الروح في وجداننا وفكرنا وتطلعاتنا، لأنها روح يقبلها عصرنا، فيها عناصر اساسية وضرورية من مثل:

-العقلانية.

-والواقعية.

-التعامل النقدي.

- النظرة العلمية (الأكسيومية والتجريبية).

فعندما ندقق النظر في بعض المقدمات التي وضعها، نجد إنها لاتزال "صالحة" وقابلة لأن تفيدنا في انشاء علم اجتماع عربي اسلامي، مقدمات من قبيل:

-الإنسان - الوقت - التراب.

-الأفكار - الأشخاص - الأشياء.

- المصالح - الوسائل - الغايات.

- الفرد - الجماعة - الأمة. الخ.....

وفي مدونة بن نبي الفكرية، يوجد الكثير من المسلمات التي تشكل أرضية نظرية صلبة لرسم معالم فلسفة اجتماعية بنائية، تكون هي الخلفية الفكرية لمدرسة فكرية في العلوم الاجتماعية، تراعي إعادة بناء شبكة العلاقات الاجتماعية على اساس اسلامي، ولعل مختلف انواع الصراع الايديولوجي والسياسي والفكري في المجتمع الاسلامي المعاصر، وكافة مظاهر التفكك والتحلل مصدره هو البعد عن العقيدة

33 مولود عويمر، هكذا اصبح مالك بن نبي مفكرا علميا، جريدة البصائر، العدد 729، 17-23 نوفمبر 2013، ص 11.

والشريعة، إيماناً وعملاً وسلوكاً. وتؤمن بعمق بأنه لامخرج إلا بالتخلص من إنسان ما بعد الموحدين من جهة، والوعي برسالتنا نحو انقاذ الانسانية من جهة ثانية.

وعلى وجه الاجمال، نقول: لو قدر لـ"بناية" أن تقوم، فإن إسهامها في المشروع الحضاري العربي والإسلامي المعاصر، يكون غير ذي معنى إذا لم ين على رؤية معرفية ناضجة لدى القائمين به رؤية معرفية بنـ 1. حقيقة الواقع الراهن للأمة العربية والإسلامية.(الوعي بأهمية تجاوز بعض المفاهيم و الافكار البنائية).

2. حقيقة تاريخها وذاتها الجماعية.

3. حقيقة العالم من حولنا.

كما أن المطلوب أيضا التصدي معرفياً لتفكيك بنيتين أساسيتين:

أ. البنية الذهنية الفوقية للعقل العربي والإسلامي.

ب. البنية السوسيولوجية التحتية للمجتمع العربي.

أو حسب المصطلح الحديث: مستوى الإيديولوجيا، ومستوى السوسيولوجيا، أو بتعبير أبسط: الفكر والواقع.

فبالنسبة لبنية العقل العربي العام، أي المستوى الفكري، لابد من معالجة الإشكالات التالية:

- العقل العربي يميل إلى العموميات والمطلقات ولا تستهويه إلا الغايات الكبرى والأهداف العظيمة دون أن يتوقف أمام الجزئيات التي قد تكون على غاية قصوى من الأهمية .

- معالجة الفجوة القائمة بين الأهداف والغايات الكبرى المعلنة في الحياة العربية كالوحدة العربية والحدثة ومواجهة والصهيونية والجهاد و..... وبين السلوك اليومي للجماهير العربية والنخب العربية في حياتنا الواقعية. هذا السلوك البعيد كل البعد عن إمكانية التقدم نحو تلك الأهداف.

في اعتقادي، للخروج من هذا المأزق، ليس هناك بد من مراعاة عناصر الرؤية التالية:

أ- يجب الخروج من دائرة التفسير المجزأ لكل أزمة بطروفيها المباشرة أو الآنية، إلى البحث عن مكوناتها التاريخية والمجتمعية أعني القاعدة السوسيولوجية الشاملة التي تفرز هذه الأزمات.

ب- إن هذه الأزمات في جانب مهم منها، هي استمرار لأزمة سياسية تاريخية مزمنة، ظلّت معتملة في بنية الحضارة العربية الإسلامية.

وما لم يصحح هذا الوعي الزائف سنظل نعاني من سوء الفهم، وسوء التقدير .

ج- من أهم متطلبات تصحيح الوعي بالذات وبالواقع المجتمعي والسياسي، أن ينضج علم اجتماع عربي- إسلامي، يستطيع تفسير معضلات السياسة العربية وتجاوزها وتفهم الخصوصية العربية الإسلامية.

- خاتمة:

وحين ندرك ذلك، سنقول للأستاذ مالك بن نبي: يا "شاهد القرن": لقد صار القرآن "ظاهرة" علمية وحضارية نستمد منه كل تصوراتنا ومفاهيمنا ومناهجنا. فقد تحددت لنا "وجهة العالم الاسلامي"، وعدنا نفرق جيداً بين "الرشاد والتهيه" لأننا، بالرغم من أننا "في مهب المعركة"، تجاوزنا "مشكلة الثقافة" ونحن بصدد الاعداد لـ "ميلاد مجتمع" يحقق "شروط النهضة".

قائمة المصادر والمراجع:

- المصادر:

- مالك بن نبي، مذكرات شاهد للقرن، دار الفكر المعاصر - بيروت، دار الفكر - دمشق، ط2، 1993.
- مالك بن نبي، فكرة الافريقية الاسيوية، تر: عبد الصبور شاهين، دار الفكر، دمشق، الجزائر، ط3، 1992.
- مالك بن نبي، مشكلة الثقافة، تر: عبد الصبور شاهين، دار الفكر المعاصر، بيروت، دار الفكر، دمشق، (د.ط)، 2000.
- مالك بن نبي، في مهب المعركة، دار الفكر، دمشق، ط4، 2002.
- مالك بن نبي، شروط النهضة، تر: عمر كامل مسقاوي و عبد الصبور شاهين، دار الفكر - الجزائر، دار الفكر - دمشق، ط4، 1987.
- مالك بن نبي، وجهة العالم الاسلامي، تر: عبد الصبور شاهين، دار الفكر، دمشق، ط2، 2002.
- مالك بن نبي، ميلاد مجتمع، تر: عبد الصبور شاهين، دار الفكر، دمشق، ط3، 1996.
- مشكلة الأفكار في العالم الاسلامي، تر: بسام بركة وأحمد شعبو، دار الفكر للطباعة والنشر، دمشق، ط1، 2000.
- مالك بن نبي، فكرة كومنولث إسلامي، دار الفكر، دمشق، 2000.

- المراجع:

- محمد عمارة، الصحوة الاسلامية والتحدي الحضاري، دار الشروق، القاهرة، ط2، 1997.
- بن ابراهيم الطيب، مواقف وأفكار مشتركة بين مالك بن نبي وابن خلدون، دار مدني للنشر والطباعة، الجزائر، (د.ط)، 2002.
- عبد القادر بوعرفة، الحضارة ومكر التاريخ، منشورات مخبر الأبعاد القيمية للتحويلات الفكرية والسياسية بالجزائر، دار رياض العلوم، الجزائر، ط1، 2006.
- كتاب جماعي " تأملات في فكر مالك بن نبي"، الناشر: مخبر الأبعاد القيمية للتحويلات الفكرية والسياسية بالجزائر، دار القدس العربي للنشر والتوزيع وهران - الجزائر، ط1، 2014.

- محمد شاويش، مالك بن نبي والوضع الراهن، دار الفكر، دمشق، سوريا، ط1، 2007.
- أبو القاسم سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي، ج 7، دار الغرب الإسلامي، بيروت - لبنان، ط1، 1998.
- مجلات ودوريات:
- مجلة الموافقات، الصادرة عن المعهد الوطني العالي لأصول الدين، الجزائر العاصمة، العدد الثالث، جوان 1994.
- جريدة البصائر، العدد 729، 17-23 نوفمبر 2013.
- أطروحات جامعية:
- محمد العاطف، معوقات النهضة وطرق علاجها في فكر مالك بن نبي، رسالة ماجستير، جامعة الجزائر، السنة الجامعية 2007-2008.
- مواقع إلكترونية:
- <https://islamonline.net>